

القسم الثاني

صداقة وعداء وسط النكبات والهزائم

١ - فرنسا والحرب العالمية الثانية بين الديمقراطية والفاشية :

قامت الحرب العالمية الثانية وكانت فرنسا منقسمة في الداخل : فالروح الرجعية التي تفشت في عدة بلاد بأوروبا وأفريقية ، وآسيا أخذت في فرنسا مظهر العنف في مظاهرات الكونكورد سنة ١٩٣٣ وهذه الروح لم تكن قد ماتت في سنة ١٩٣٩ بل كانت تمثل مصالح وأغراض تلك الفئة التي أشرنا إليها من أساطين الصناعة الذين أخذوا على عاتقهم تنفيذ هذه البرامج ، وكانت هذه الفئة تؤمن بضرورة مسالمة برلين وروما ، لا حباً فيهما ، أو رضوخاً لإرادتهما بل لأن الوطنية تملئ بأنه يجب تحمل كل شئ في سبيل السلم ، حتى تستكمل فرنسا بناءها الصناعي ولو كان في ذلك الخروج من ميثاق عصبة الأمم ، أو إهمال المحالفات والضمانات القائمة .

٢ - صداقة بريطانيا :

يقابل هذه الروح تيار الديمقراطية ممثلاً في روح الجماعات

والأحزاب السياسية والبرلمان ، وكانت جميعا لا ترغب في الاندفاع طريق إلى غير مأمون العاقبة ، يفقد فرنسا مركزها الأدبي كدولة عظمى ، إذا حثت بالمواثيق والضمانات المأخوذة ، أو ضربت بالمحالفات والمعاهدات عرض الحائط ، ويفقدها صداقة حليفها بريطانيا ، تلك الصداقة التي بنيت عليها سياسة فرنسا منذ الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ ، وأكسبتها المواقف الاستعمارية في مؤتمر الجزيرة ١٩٠٧ وأيام جادث أغادير في مراكش سنة ١٩١١ وكانت العامل الأساسى لكسب حرب ١٩١٤ / ١٩١٨

٣ — أثر بريطانيا في سياسة فرنسا :

وكانت هناك دواع تملى باستبقاء تلك الصداقة من الجانب البريطانى نفسه . فقد ظهر جلياً بعد تقدم الطيران ، وموقف إيطاليا المعادى أن أراضى الامبراطورية الفرنسية ستكون في السلم والحرب الممر الطبيعى للطائرات البريطانية ، إذا تحاشت البحر الأبيض المتوسط . لم يكن من السهل إهمال علاقات هذا الجوار ، وما تمليه المصالح المشتركة للبلدين ، وما يفرضه تعاشق حقوق الارتفاق بين الأمبراطوريتين ، ولهذا لم تترك السياسة البريطانية هذه الناحية تسير طبقاً للأقدار بل مالت بقواتها وعبأت أساليبها المختلفة وعضدت الاتجاه المضاد للحركة الأولى ، وكان إن حكمت فرنسا حكومات

بقيت حريصة على تحالفة بريطانيا ، وترتب على هذا أن دخلت فرنسا الحرب العالمية الثانية بجانب الامبراطورية البريطانية .

ومن هنا نفهم حقيقة العرض الذى تقدم به تشرشل قبل تسليم يونيه ١٩٤٠ واقترح فيه إدماج الامبراطوريتين فى اتحاد واحد وهو العرض الذى توهم فيه الكثيرون بأنه كان عرضاً خيالياً لا يستند إلى أساس .

٤ — الحرب العالمية الثانية ٣٩ — ١٩٤٥ والمستعمرات الفرنسية .

جاءت الحرب وتتابعت شهورها الأولى . وتحملها الناس وطأتها على فرنسا ، وظهرت عيوب الأنظمة الفرنسية ، وتفككت الأحزاب الحاكمة ، وخيانة رجال الصناعة ، وقواد الجيش ، وتوالت الهزائم واضطرت فرنسا للتسليم عقب قتال لم يدم طويلا . وكان أن طرأ حادث غريب فى تاريخ العالم جاء نتيجة لإبرام عقد الهدنة بين فرنسا وألمانيا سنة ١٩٤٠ وهو أن يحتل العدو بلداً أوريبيا أوجزاء منه بجيوشه وتبقى أراضى المستعمرات من غير احتلال وليس فى ذلك من عجب إذا كانت الهدنة لوقف القتال ثم تعقبها مفاوضات الصلح وينتهى الأمر بإبرامه عقب فترة قصيرة من الزمن كما حدث سنة ١٨٧٠ ، أما أن تعقد الهدنة ويتضح من شروطها استثناء الامبراطورية الفرنسية وبقاء جيوش الجمهورية للدفاع عنها ويستمر ذلك شهورا

ثم سنوات ما دامت الحرب قائمة فأمر جديد أثار الكثير من المشاكل كلها بعدت نهاية الحرب .

فهنالك فريقان يتحاربان حرباً مميتة . وهناك أمبراطورية لدولة قبلت التسليم فما هو حكم الأراضي التي سلمت . أم هي دار حرب وقتال ، أم هي على الحياد ؟ لاشك في أن القسم الفرنسي الذي يشغله العدو بجيوشه هو دار حرب .

فما هو موقف القسم غير المحتل وأهم جزء فيه تلك الأمبراطورية بأقاليمها المتسعة .

٥ — الهدنة سنة ١٩٤٠ ومستعمرات فرنسا :

كنت في بيروت عند بداية الحرب وبعد عقد الهدنة ، ولقد شعرتنا وشعر الناس جميعاً أن الحياد الذي أرادت فرنسا أن تظهر به غير موجود ، ولا يمكن التمسك به نظرياً أو عملياً فقد كانت الطائرات الإيطالية والألمانية تضرب فلسطين وكان بعضها يصاب بنيران المدفعية ، فيضطر للهبوط في أراضي سوريا ولبنان ، فاتخذت السلطات الفرنسية معها في الحوادث الأولى الإجراءات التي ينص عليها باب الحياد في القانون الدولي ، وكان للألمان لجنة عليا في فيسبادن ، تشرف على أمور الهدنة وتفسير شروطها . أبلغت هذه اللجنة الحكومة

الفرنسية رسمياً أن شروط الهدنة مع المانيا لا تجعل من فرنسا ومستعمراتها بلدا محايدا ، وما يسرى على المستعمرات يسرى على الأراضى المشمولة بالانتداب^(١) ، وبناء على ذلك أفرجت السلطات السلطات العسكرية الفرنسية عن الطائرات والطارين ، وسمحت بالمرور والنزول فى المطارات ، فكان من بريطانيا أن قدقتها بالقنابل ووجهت حملتها لاحتلال أراضى سوريا ولبنان .

٦ — حالة شاذة :

هذه الحالة الشاذة لأوضاع الأمبراطورية الفرنسية طول مدة الحرب أوجدت فى أراضها نوعا من الحكم استفاد منه الفرنسيون للوقوف بين الفريقين المتحاربين ، ولو أنه أدى فى النهاية إلى خسارة أسطولهم ، واحتلال الألمان والطيلىان تونس ، إلا أن هذه الحالة لفتت أنظار الفرنسيين جميعاً للأمبراطورية وأثرها وأهميتها ، وما ينتظر منها ، وإنها قوة المستقبل ، ودرع الشعب الفرنسى ، وغير ذلك ، مما كانت تردده الصحف وتذيعه الأنباء المختلفة من محطات اللاسلكى .

انقسمت فرنسا إلى قسمين : حكومة فيشى وحركة الجنرال دييجول . وانفق كلاهما على أمر واحد وهو الاحتفاظ بوحدة الأمبراطورية ، وعدم التفريط فى أى جزء منها ، وترجع الأخطاء

(١) أى اراضى سوريا ولبنان

وأعمال العنف التي ارتكبتها ممثلو فرنسا في القطرين الشقيقتين سوريا ولبنان إلى تمكن هذه الفكرة منهم ، تمكنا أعمامهم عن تلمس الحقائق ومواجهة تطور العالم الجديد .

وأغرب من ذلك أن الحلفاء حينما وجهوا حملتهم إلى شمال أفريقيا قام الكتاب الفرنسيون بحملة قلبية في أنحاء العالم ، تقول : إن الأمبراطورية وشعوبها قد قامت تشد أزر الجنرال ديغول ، وأنها سارت تحت لوائه لإنقاذ أراضى الوطن المحتلة ، واتخذوا هذه هذه الدعاية دليلا على نفوذ فرنسا وقدرتها الاستعمارية . بل من هنا أخذوا ينادون بما صمموا عليه من إدخال سياسة الاتحاد الفرنسى وفرضها بقولهم : إن المستعمرات قد حلت عبء القتال عن الوطن الأوربى المحتل ، فهى إذن ساهمت فى تحريره ومن حقها أن تندمج فيه وتكون وحدة معه وتنقل هنا ما كتبه بول أميل قيار « لأول مرة سلم الوطن الأم وبقيت فرنسا تحارب فى مستعمراتها . »

٧- لماذا لم تحتل المانيا الأمبراطورية الفرنسية :

إن السياسة التى أملت على المانيا ترك الأمبراطورية الفرنسية تحت إشراف فرنسا بعد تسليمها لا تزال غامضة ، بل هى إحدى المعميات التى سيتسائل عنها مؤرخو الحرب طويلا ، فقد تكون

هناك عوامل عسكرية أو سياسية فرضت هذه السياسة ، ومن المحقق أن هناك مفاوضات وأشياء لا يزال العالم يجهلها تماما .

فمن قائل أن التسليم قد تم على يد رجال يؤمنون بعظمة فرنسا إذا تخلصت من انظمتها الدستورية ، واتجهت اتجاهها فاشيا ، فمن الطبيعي تشجيع هذه الحركة وإعطاء هؤلاء الناس بعض النساھل ، بترك المستعمرات لهم ، ومن قائل أن الغرض الأساسي الذي رمى إليه هتلر هو أن يجعل الأمبراطورية الفرنسية يوما ما في صفه أمام الأمبراطورية البريطانية في إفريقيا وذلك لأن :

٨ — لفرنسا سياسة أوربية وللمستعمرات سياسة امبراطورية :

يقول أصحاب هذا الرأي أنه إذا كان لفرنسا سياسة في القارة الأوروبية تعتمد على الأمن والضمان ، وهي تحتم التحالف مع بريطانيا وغيرها فإن الإمبراطورية بحكم موقعها الجغرافي ونفوذها وحاجاتها الاقتصادية سياستها الخاصة بها .

ويظهر ذلك جليا في أن الفرنسي في القارة الأوروبية يعالج المشاكل بروح تختلف عن روح الفرنسي بالمستعمرات الذي يفكر بالاسلوب الأفريقي الاستعماري وينظر إلى عظمة فرنسا في امبراطوريتها ، نظرة بعيدة عن تطور السياسة الأوروبية وما تفرضه من محالفات وصدقات .

فاذا تركنا جانبا المستعمرات البعيدة مثل مدغشقر والهند الصينية تبدو الامبراطورية الفرنسية لعقول هؤلاء كوحدة جغرافية لها أهمية كبرى ، وهي في نظرهم كائن حي ، له ما لفرنسا من مشا كل متعلقة بالأمن والحماية والجيش والبحرية .

وقد تنمق السياسستان وقد تختلفان في الشؤون الخارجية . أما في الشؤون الداخلية فتدظر أثر الرجال الفرنسيين المقيمين بالمستعمرات في محاربة كل إصلاح يرمى إلى إشراك الوطنيين في الحكم^(١) بل فرضوا إرادتهم واجبروا الحكومة المركزية على تغيير سياستها مرارا ، ولذلك توهم المختصون بشؤون الاستعمار أن لا يخرج لهم من هذا التعارض سوى سياسة الاتحاد ، التي تجعل من فرنسا والامبراطورية كتلة واحدة في الخارج والداخل لها سياسة واحدة .

وكان من رأى الذين لمسوا هذا النزاع القائم أن المشاكل الإقليمية والحربية في سيرها وتطورها تواجه في النهاية مصالح الامبراطورية البريطانية في إفريقية وأكبر ضربة لهدم التحالف الفرنسي البريطاني تأتي من تشجيع فرنسا الأخذ بسياسة امبراطوريتها ، في الأمور الخارجية وبنوا نظريتهم على ما يأتي :

(١) لا يزال هذا النفوذ قائما وهو يعطل ويقضى على كل سياسة تقارب نحو انباء المغرب

٩ - المتناقضات القائمة بين امبراطوريتين عالميتين

فقالوا ان سياسة الوفاق والصداقة سهلة وتبدو ضرورية في أوروبا ، ولكنها صعبة وغير محتملة في افريقية ، أو إذا سار التحالف بانسجام هنا فإنه لايسير أشواطا بعيدة في إفريقيا ، من غير أن تبرز المتناقضات وهي الأمور التي تطور الى مشاكل أو ازمات ، فيستعصى حلها ، لأن مردّها إما إلى السياسات العليا أو إلى القواعد الثابتة لطبائع الأشياء ، وعلى هذا الضوء تبدو حوادث سوريا ولبنان سنة ١٩٤٣ ومشاكل بريطانيا في طرابلس الغرب ، وبرقة في الوقت الحاضر ، وتعذر إيجاد حل لها .

١٠ - أمل المانيا في استغلال التنافس بين الدولتين

كان الألمان على إلمام تام بالحالة النفسية والعسكرية في الجيش الفرنسي ، وبما يمكن أن تؤديه الفرق المكونة من الجنود الافريقية وعلى يقين من طاقة هذه الشعوب المستعبدة ومقدار صلاحيتها للحروب الحديثة ولذلك أبقوا على وحدة الامبراطورية الفرنسية وتركوا بيد الفرنسيين احتملو ابقاءها لأنهم توهموا ان التنافس بين البريطانيين والفرنسيين قد ينقلب إلى عدااء وقد مرت حوادث كانت نتيجة التصادم والقتال ولكن الامبراطورية الفرنسية لم تتحرك ، بل إن القتال الذي نشب في سوريا ولبنان انحصر هناك

(١) حررت بريطانيا اراضي سوريا ولبنان وهي تحاول إيجاد حكومة في برقة وطرابلس فتقاومها فرنسا . هذه المتناقضات مما يتعذر الاتفاق عليها

أما من الناحية الفرنسية فقد تمكن الأمل من القواد والساسة لدرجة أنهم توهموا أن لديهم القوة الكافية للدفاع عن الامبراطورية اذا هوجمت وحشدوا وحداتهم البحرية في شمال افريقيه أملا في الخروج إلى السلم بالسيادة على البحر وحدود المستعمرات كما كانت قبل الحرب بل كانوا يتبجحون بأنه إذا لزم الأمر أن يقبلوا التضحية عند إقرار السلم مع المانيا فليتمكن التضحية من الأراضى الأوروبية إذا ضمنوا المحافظة على وحدة أملاكهم الافريقية التى هى المدى الحيوى التاريخى للشعب الفرنسى وهو الزم لهم من مقاطعات الشمال .

ومن الغريب أن هذا الأمل الألمانى وهذا المنطق الفرنسى ترك شمال افريقية فى حالة سهلت للحلفاء احتلالها واتخاذها بمرافئها لجمع قواتهم التى زحفت الى قلب اوربا فكان أن ساهمت الامبراطورية الفرنسيه فى تحرير اوربا بل فى تحرير العالم ولكن كبقعة متسعة من الأرض استعملت كمسرح للحوادث والمعارك كأي بقعة من بقاع الشرق الادنى .

١١ — الحلفاء يسيطرون على أملاك فرنسا ثم يعيدونها إليها

تمزق السور الفولاذى لأول مرة عند دخول الحلفاء وقواتهم أراضى شمال افريقية فرأى اهل مراكش وتونس والجزائر جنودا من عناصر اخرى غير فرنسية ولا بد انهم لمسوا وعانوا اشياء جديدة ولكن البلاد التى خضعت لسنوات عديدة لاعمال العنف

والتشريد كانت بتمخض بانبعث جديد ووثبة شاملة ولم تكن حملة الحلفاء لتخلق هذا الوعي القائم لولا أن لهذه الشعوب من الشخصية والتاريخ ما يجعلها تحس وتشعر بالرسالة التي تحملها للعالم وجاءت حملة الحلفاء لهذه الأرض بأساطين العالم وكانت مقر مؤتمرات وعرف الناس جميعاً أن أراضي تونس والجزائر ومراكش أصبحت وديعة في يد الحلفاء وقد أعيدت لفرنسا بعد أن تعهد رجالها لروزفلت أن تسير هذه البقاع في ركب الحضارة نحو الحرية وتقرير الصبر كغيرها من بقاع الدنيا التي يسكنها الإنسان لا الحيوان

(اعود الى الوراء ام عصر جديد) هذه كلمة الاستاذ اسماعيل مظهر حينما عرض الى مشروع الاتحاد الفرنسي ونحن نتفق معه في صيحته ونقول

ان الخطر الذي يبدو لنا هو ان توفق فرنسا في اقناع العالم ان الاتحاد الفرنسي هو مشروع انساني يدعو الى رفع مستوى شعوب الامبراطورية ويعد تنفيذه تحقيقا لما وعدوا به روزفلت في اجتماع الدار البيضاء وانه مرحلة في طريق الرقي الاجتماعي كما تعهدوا. (١) ولكن فكرة الاتحاد قديمة وسنعرض لها في الجزء الاخير من هذا البحث ونبرهن انها اخطر بكثير مما تتصور وانها ضربة موجبة لاستقلال الشعوب وحريتها ومستقبلها وانها اخطر طعنة يوجهها الاستعمار الأوربي في افريقيا موطن الشعوب المظلومة .

(١) تبدلت الأوضاع في السنوات الاخيرة وحدث ما كنا نخشاه .